**المحاضرة التاسعة: النقد الواقعي**

كثيرا ما يقع الخلط بين النقد الاجتماعي و النقد الواقعي، ذلك أن الأصل في اعتمادهما واحد و هو الواقع، إذ يعتقد أن النقد الاجتماعي رديف للواقعي و كل منهما يرى في الأدب صورة عاكسة للواقع الذي يحيط بالأديب، و الفصل في هذا الوضع هو العودة لفترة ظهور كل منهما، فيتعلق الأمر باتجاه ظهور وفق رؤى معينة وتطور ليصل في النهاية إلى صورة مختلفة و منفصلة عن الصورة الأولى ليشكل بدوره اتجاها آخر، فالنقد الاجتماعي كما تم توضيحه يرد تفسير الأدب إلى واقعه الخارجي، و في اعتقاده أن الأدب يتشكل استجابة لهذا الواقع الذي يكون مرجعه في الإبداع مهمش، و في الوقت نفسه كثير من الجوانب المتعلقة في العمل الإبداعي وبها يتميز الكلام الفني عن غيره مهملة و مبعدة.

فجرى تطوير هذه الرؤية، و مع ظهور الواقعية الجديدة ارتسمت لهذه النظرية ملامح جديدة تتعلق في مجملها بعلم الجمال، فلا يتحقق الأول ما لم يراع فيه البعد الجمالي الذي يميزه، فصار البحث في الأدب عن الأبعاد الجمالية التي تعكس هذا الواقع بأبعاده الاجتماعية و السياسية و حتى الاقتصادية... و صار جوهر الأدب هو هذا البعد الجمالي الذي انطلق القول به من آخر ما وصل إليه علم الجمال الماركسي، و صارت العلاقة بين الأدب و الواقع يرسي دعائمها القول بالجانب الجمالي الإبداعي.

فالنقد الواقعي من هذا المنطلق هو غوص في الأبعاد الجمالية للتجربة الإبداعية من أجل البحث عن المضامين المتعلقة بالواقع، يكون البحث فيها ليس سطحيا و لكن فتحا للمغاليق و دخول بوعي الناقد إلى أبعاد المضامين، فالقول بالنقد الواقعي هو استدعاء لعلم الجمال في صورته الجديدة المتطورة في العصر الحديث، فيكون عمل الأديب ليس هو النقل الحرفي للواقع كما هو، أو كما أشارت إليه الآراء المتعلقة بالنقد الاجتماعي، و لكن الأمر فيه متعلق بصورة وجدانية مختلفة تتكون بين المبدع و واقعه، فلا يصور الواقع انطلاقا من انفعالاته الحسية المباشرة، و لكن بوعي جمالي يفترض توفره في المبدع، فيقارب الأشياء في الواقع لا كما يراها، و لكن بأبعاد مختلفة عن الواقع تمثل وعيا و يقظة بالعالم، و إن كان مصدرها الواقع كما هو ببساطته.

فيتعالى المبدع عن التصوير الفوتوغرافي للواقع كما عرف عنه، و يصبح عمله أكثر وعيا من عرض أحداث مؤقتة على أرض الواقع، يكون تأثيرها متغيرا بتغير هذه الظروف، و المبدع هو الذي ينصرف عن الرؤية السطحية و يتعالى عنها ليصور العالم صورة راسخة فنية جمالية لا يحكمها العقل و لكن يحكمها الخيال بما هو هذا النقل النوعي للواقع كما هو، و يبطنه من خلال دلالات متعالية، و يكون عمل الناقد إذن ليس القراءة السطحية ولكن عملا موازيا يضاهي عمل الأديب في بعض الأحيان، لأن وظيفته هي الكشف عن هذا المبطن في الكلام باستدعاء ذوقه الجمالي الذي يقارب من خلاله الصور الجمالية، فينبئ في بعض الأحيان عن دلالات في الأدب، حتى صاحب الإبداع لم ينتبه إليها.

وفق هذه النظرة ينتهي زمن النقد الذي يبنى على الاستحسان و الاستهجان، كما انتهى زمن التزود بمجموعة من القوانين التي تؤخذ عن مناهج في النقد مختلفة، و يصبح الناقد بدوره مبدعا إذ يمتلك القدرة على ذلك، و يكون قادرا على الفصل بين الوعي الاجتماعي و الواقع الاجتماعي، و هنا تكمن خصوصية النقد الواقعي، إذ يتحدث عن واقع مختلف عن الواقع الحسي، إذ هو الواقع الذي يتكون في ذهن و مخيلة المبدع انطلاقا من الوعي به و اليقظة بمختلف عناصره.

وهنا يكون البون واسعا بين النقد الاجتماعي و النقد الواقعي، هذا الأخير الذي يكون عمل المبدع فيه والناقد متميزين، إذ يتعالى التصور عندهم عن الواقع ليقارب به الواقع، بالإضافة إلى البعد الجمالي الذي يتشكل عند كليهما حالة التدوين و حالة النقد و المقاربة، و كل هذا تأثرا بالفلسفة الماركسية الحديثة المتعلقة بعلم الجمال، التي لا ترى ضرورة في النقل الحرفي للواقع و الساذج كما ترى الواقعية المادية، و ضرورة التصوير الجمالي به لرفعه من بساطته و تغيره.

ومن هذا المنطلق، -ماهي حدود النقد الواقعي؟ و ما هي روافده و مرجعياته؟ و كيف أثرت الواقعية الجديدة ( الاشتراكية ) عليه؟ و في العالم العربي من هم رواده و بمن ارتبط؟ كلها أسئلة تحاول أن توضح النقد الواقعي و انفصاله عن النقد الاجتماعي و عن تأثير الرافد الفلسفي على النقد في هذه الفترة، و عن العودة التي تأكدت لعلم الجمال مع التيارات الحديثة و استعادة الإبداع لأهم ميزة تميزه عن غيره، خلافا لما صورته التيارات التاريخية و النفسية و كذا الاجتماعية...تركيزها على المصادر الحسية، حيث يكون المبدع في كل حالاته ناقلا حرفيا أو منفعلا سلبيا أو مريضا عصابيا، دون الحديث عن أهم صفة تميز الإبداع و هو الوعي الجمالي الذي يتقاسمه هذه المرة كل من المبدع و الناقد.

وتتعالى وظيفة المبدع عن النقل الحرفي إلى الوعي بما ينقل، مشكلا صورة مختلفة تختفي وراءها الظروف الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية..، و على الناقد المتسلح بهذا الوعي أن يمتلك القدرة على كشف هذه الحقائق من النقد انطلاقا من تحليل الأبعاد الجمالية التي يظهر فيها الناقد من خلال إضفائه لذوقه الجمالي، والحديث عن هذا النوع هو إيذان برؤية معاصرة للنقد كما يبدو مختلفة عما كانت عليه من قبل.

**1-في مفهوم النقد الواقعي:**

يقتضي الأمر بداية ضبط مفهوم النقد الواقعي قصد فرز الحدود الدقيقة التي تفصل بين تصور الواقعية و النقد الواقعي" و قد بدأ استخدام مصطلح الواقعية في روسيا في الستينات من القرن الماضي، حيث اتخذه بعض النقاد شعارا لهم، على أنه كان يعني لديهم حينئذ مجرد التحليل و النقد، فالكاتب الواقعي ليس إلا عاملا يفكر، على حد تعبير أحدهم، و هو نفس التعبير الذي استخدمه (ماو) فيما بعد و قد برز في تلك الآونة موقف ديستويفسكي الذي كتب عام 1863 يرفض الطبيعية الفوتوغرافية و يدافع عن اهتمامه الحي بالعناصر الخيالية الفريدة، و يقول في إحدى رسائله الشهيرة، إن تصوري عن الواقع و الواقعية يختلف إلى مدى بعيد عن تصورات نقادنا و كتابنا الواقعيين، فمثاليتي أكثر واقعية من واقعيتهم، ثم يشير إلى عمق تناوله للقضايا إذا قورن بسطحية تصويرهم للحياة، و يضيف قائلا( يطلقون على خطأ الكاتب السيكولوجي، بينما أنا في حقيقة الأمر واقعي بأسمى ما تعنيه الكلمة، إذ أنني أصور أغوار النفس البشرية العميقة"[[1]](#footnote-1).

وفي مقابل هذا الخلط، كثيرا ما يقع التداخل بين مصطلح الواقعية و الطبيعية" و في ظل الخلط بين هذين المصطلحين قائما حتى الربع الأول من القرن العشرين، إلى أن نشر الناقد بير مارتينو، كتابين هامين أولهما عام 1913بعنوان ( القصة الواقعية)و الثاني عام 1923 بعنوان ( الطبيعة الفرنسية) و حدد فيهما التمييز القاطع بين المصطلحين، فالطبيعة هي مبدأ زولا و تقتضي عرضا علميا للأدب و فلسفة مادية محددة، أما الواقعية فهي ذلك التيار الزاخر الذي يجرف في مساره كثيرا من الإيديولوجيات و الفلسفات و الذي اغتسل بمائه معظم كبار الكتاب العالميين في القرنين الأخيرين"[[2]](#footnote-2).

ورغم السعي دائما للفصل بين النقد الاجتماعي و الواقعي، إلا أن النقد الاجتماعي هو الأب الشرعي للنقد الواقعي، فمن التصوير الفوتوغرافي الواقع، إلى التمرد على هذا الواقع و محاولة مجاوزته من خلال رسم صورة مختلفة" و كانت جذور هذه الحركة التي نشبت في أوطان عديدة متنوعة إلى أقصى مدى، و اتجاهاتها الخاصة بأسلوب أشد تنوعا من ذلك، و من هنا نجدها تتسم بلون من التماسك الإيدبولوجي الذي يدور حول التمرد الانساني، و تكفي الإشارة إلى بعض أعلامها الذين ينتمون إلى آداب مختلفة مثل( أناتول فرانس) و( رومان رولاند) و( شو)و(توماس مان) لكي نرى بوضوح تلاقي اتجاهاتهم، و ليست الواقعية الغربية اليوم في موجتها الثالثة سوى امتدادا لهذا التمرد من وجهة النظر الاجتماعية الموضوعية مما يؤكد بصفة قاطعة استمرار تأثير زعماء التمرد هذا على اتجاهات المرحلة الأخيرة"[[3]](#footnote-3).

وقد ارتبطت الواقعية النقدية بالقصة و الرواية أكثر من غيرها من الفنون، ذلك أن هذين النوعين ارتبطا أكثر بوصف الواقع و نقله، و على اختلاف صور نقل هذا الواقع، يكون عمل الناقد الواقعي هو التوسط الجمالي من أجل الكشف عن هذا الواقع مبطنا و مغيبا" و نتيجة لذلك يخلص بعض النقاد المحدثين إلى أن كل من القصة إنما هي واقعية في بعض ظواهرها و غير واقعية في بعضها الآخر، و يجب على النقد أن يقتصر على تقييم نسبة الواقعية في كل عمل بمقارنة ما أجهد الكاتب نفسه في عرضه بما يمكن أن نراه بالفعل قد تحقق في هذا العرض، غير أن هذا المعيار النسبي سيكتب كثيرا من الموضوعية و الدقة عندما ندعمه بالأسس الجمالية للواقعية" [[4]](#footnote-4)، لذلك كثيرا ما تذكر الواقعية و الواقعية الجديدة" إن واقعية القرن العشرين اختلفت اختلافا كليا، و واقعية القرن التاسع عشر لاختلاف العالم الذي تصفه مع تمسكها بالمتطلبات الجوهرية لفن القصة الواقعية، بل قد نقول إن النظرة الواقعية السائدة في القصص قبل المدرسة الواقعية في القرن الماضي، قد عادت إلى الظهور، و قد استفادت من تجارب هؤلاء الطبيعيين و الواقعيين و ما فتحوه من ميادين كانت محرمة على الكتاب و الفنانين"[[5]](#footnote-5).

ومجمل القول، يتطور القول بانتماء الأدب إلى الواقع مع المناهج الاجتماعية ليصل إلى مرحلة يكون فيها قد وصل أوجه، و ذلك بتغيير النظرة البسيطة السطحية التي كانت تربط بين الأدب و الواقع ربطا بسيطا مباشرا وفوتوغرافيا، إلى آخر أكثر تعقيدا و دلالة على الواقع، لا كما هو و لكن كيف يمكن أن يكون، و هنا يصبح الحديث عن واقع مختلف يتشكل من الفجوة التي يتركها الفراغ الذي يتوسط بين الواقع كما هو و الحلم الذي يراود الإنسان في احتماله، و للحديث عن النقد الواقعي استحضار للفلسفة الماركسية في الجمال و طرق البحث عن الجمالية انطلاقا من طرق المبطن و المغيب في كلام المبدع، على إثرها يتحول عمل الناقد إلى عمل مقارب أو متجاوز لعمل المبدع في ذاته، قالت الواقعية الجديدة بظروف مختلفة لواقع هو في الأصل مختلف عن الواقع العادي و منه كانت الفجوة واسعة بين النقد الاجتماعي و النقد الواقعي، احتوى العالم العربي النقد الواقعي كباقي التيارات النقدية الحديثة، و برز فيهلا مجموعة من الرواد أمثال محمد مندور و حسين مروة و غيرهم كثيرون...

1. -صلاح فضل:منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، دار المعارف- القاهرة- ط:2، 1980،ص 18. [↑](#footnote-ref-1)
2. - صلاح فضل:منهج الواقعية في الإبداع الأدبي ، 19. [↑](#footnote-ref-2)
3. -المرجع نفسه، ص 22. [↑](#footnote-ref-3)
4. -المرجع نفسه، ص 34. [↑](#footnote-ref-4)
5. -ليلى عنان:الواقعية في الأدب الفرنسي، دار المعارف –القاهرة- ص 59. [↑](#footnote-ref-5)